سورة مريم

وهي مع البسملة تسع وتسعون آية

لقد سُمّيت هذه السورة "مريم" لأن قصة السيدة مريم - عليها السلام - هي الحدث الأبرز الذي تتمحور حولـــه الأحداث الأخرى المذكورة في هذه السورة. لا شك أن السيدة مريم كانت والدة عيسى عليهما السلام، ولكنها لم تكن من الأنبياء، وكان زكريا وعيسى عليهما السلام أرفع مكانة منها؛ غير أن كل إنسان يكتسب أهميته من منظور خاص. فمثلاً لو أردنا ضرب مثال لشخص آمنَ بنبي على الفور برؤية سيرته الطاهرة نتيجة فراسته وورعه فسنذكر اسم سيدنا أبي بكر ﷺ، ولن نذكر اسم رسول الله ﷺ، لأن هذا الأمر لا ينطبق عليه ﷺ، فإنه أسمى مكانة من ذلك. كما أنه مما لا شك فيه أن سيدنا أبا بكر هو أعلى مقامًا من سيدنا علي رضي الله عنهما، إلا أننا لو أردنا ضرب مثال لشاب ذكي فطين أدرك الحق رغم صغر سنه، واستعد للتضحية في سبيله، فلن نذكر اسم سيدنا أبي بكر، بل نذكر اسم سيدنا علي رضي الله عنهما. فبما أن هذه السورة تشير - بشكل عام - إلى أمور تلفت نظر الإنسان إلى السيدة مريم وإلى الشخصيات المتصفة بالصفات المريمية لذا أُطلق عليها "سورة مريم"، مع أنها تتحدث أيضًا عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وإسماعيل وإدريس وزكريا ويحيى عليهم السلام.

هذه السورة مكية، فكل الصحابة الذين أبدوا رأيهم فيها قد اعتبروها مكية (البخاري: كتاب التفسير، والدر المنثور للسيوطي، ودلائل النبوة للبيهقي). وهذا ما يراه أيضًا الكتّاب الغربيون مثل "رُودويل" (Rodwell) و"ويري" (R. Wherry) و"موير" (Muir)، فكل واحد منهم قال بكونها مكية، إلا أنهم قد اختلفوا في ذلك قليلاً. يقول موير إنها نـــزلت في أواخر الفترة المكية قبيل الهجرة وبالتحديد بعد أن سافر

رسول الله ﷺ إلى الطائف لدعوة أهلها، ورجع من عندهم جراء قسوتهم وسوء تصرفهم (حياة محمد لِـ "وليام موير" ص ١٤٨). وقد حصل هذا الحادث في السنة العاشرة من البعثة النبوية.

أما رودويل فيقول إنها مكية بدون أن يحدد سنة نـزولها (ترجمة القرآن لِـ "رودويل").

أما "ويري" فإنه يؤيد ما ورد في التاريخ الإسلامي، ولكنه يحاول، كعادته، أن لا تنفلت من يده فرصة للطعن في القرآن. فإنه يرى أنها نـزلت في أوائل الفترة المكية، ولكنه يضيف، تظاهرًا بعلمه، أنها لم تنـزل في الفترة التي يشير إليها الصحابة، بل نـزلت بعدها بحوالي سنة.

فكيف، يا تُرى، علم هذا القسيس بذلك وقد وُلد بعد نـزول القرآن بثلاثة عشر قرنًا؟! إذن فإنه زعم فارغ لا يريد به إلا السخرية والطعن في الإسلام. إنه يرى أن نـزولها بدأ في أوائل الفترة الثانية للإسلام – ويعني بذلك هجرة الصحابة إلى الحبشة – واستمر نـزولها لبعض الوقت. وكأنه يحدد نـزولها في السنة الخامسة والسادسة من البعثة، ولكن بدون أن يقدم على ذلك أي شهادة من التاريخ (تفسير القرآن الكريم لِـ "ويري").

الحق أن ما ورد في الحديث الشريف بهذا الصدد هو الأساس في تحديد زمن نـزول هذه السورة، لأن الذين عاشوا مع الرسول ﷺ والذين شاهدوا أحداث ذلك الزمن إنما هم الذين يمكن أن يأتوا بشهادة صحيحة على زمن نـزول هذه السورة. وليست شهادتهم إلا أنها نـزلت في أوائل الإسلام. فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وهو من أوائل الصحابة، أنه قال في سورة بني إسرائيل والكهف ومريم: "إنهن من العِتاق الأُوَل، وهنّ من تلادي "(البخاري: التفسير، سورة بني إسرائيل).. أي أن سورة مريم هي مما نـزل في أوائل الإسلام، وأنها من مالي القديم، بمعنى أنه حفظ هذه السورة فيما حفظه حين أسلم في أوائل أيام الإسلام.

فهل، يا تُرى، نصدّق ما يقوله مَن آمن في فجر الإسلام، وحفظ هذه السور عن ظهر قلب، أم نصدّق ما يزعمه هذا القسيس الذي جاء بعد ثلاثة عشر قرنًا؟

هذه شهادة من الناحية الدينية. أما الشهادة التاريخية على كون هذه السورة قد نـــزلت لدى فجر الإسلام فهي كالآتي.

لما اشتدت المعارضة، وسعى الأعداء لقمع الإسلام بكل ما أوتوا من قوة، دعا النبي ﷺ أصحابه وأمرهم بالهجرة من مكة. فقال الصحابة: يا رسول الله، هل ستهاجر أنت معنا؟ فقال: لا، بل أنتظر حتى أتلقى من الله أمرًا واضحًا. أما أنتم فأود أن تهاجروا بسبب ما تلقونه من اضطهاد وأذى. قالوا: يا رسول الله، ما هو البلد الذي ترى أن نهاجر إليه حتى ننعم فيه بالأمن؟ فأشار ﷺ بيده إلى جهة الغرب وقال: هنالك بلد فيها ملِكٌ لا يُظلَم عنده أحد. اذهبوا إليه وستجدون عنده الأمن. وكان ﷺ يقصد بلاد الحبشة. فقامت جماعة من الصحابة وجهزوا أنفسهم للهجرة إلى ذلك البلد. وكان جعفر بن أبي طالب، شقيقُ عليّ وابن عم الرسول ﷺ، من بين هؤلاء المهاجرين. ولما هاجروا إلى الحبشة فرح الكفار في أول الأمر وقالوا في أنفسهم: ها قد نجحنا في طرد هذه الشرذمة المسلمة من بيننا، ولكنهم لما رأوا أن النبي ﷺ وأبا بكر وعليًّا وعثمان وغيرهم من الشباب المسلمين المنحدرين من الأُسر الكبيرة لا يزالون يعيشون في مكة، وأن دعوة أهلها إلى الإسلام لا تزال مستمرة بكل حماس كالمعتاد، قالوا في أنفسهم: إن خروج جماعة من المسلمين من مكة لا يمكن أن يُعَدّ نجاحًا على الإطلاق، بل هو دليل على هزيمتنا، إذ صار بذلك مركزان للإسلام، وأصبحت دعوته تنتشر بين أمتين: بين أهل مكة والمسيحيين، بينما كانت منحصرة من قبل في مكة فقط. كما بلغهم أن المسلمين ينعمون في الحبشة بأمن وراحة، فلا يعتدي عليهم الآن أحد، ولا يضربهم، ولا يؤذيهم، بل يعبدون الله ويذكرونه بحرية، ويكسبون قوتهم في راحة.

فتشاور الكفار وقالوا: لقد أخطأنا خطأ فادحًا إذ شددنا على المسلمين ففروا من بيننا. ولو أنهم أقاموا في أرضنا لقضينا عليهم وقتما شئنا، ولكنهم قد هاجروا الآن إلى بلد آخر، وانفلتوا من أيدينا، وقد ازدادوا قوة بدلاً من أن يضعفوا إذ قد تيسر لهم مركز سينشرون منه الدعاية ضدنا بيسر وسهولة، كما سيحرّضون علينا الدولة المجاورة لنا. فقرروا إرسال وفد إلى الحبشة مع رسالة منهم إلى ملكها

فحواها: إنك جارنا، وبيننا وبينك صلات طيبة، ولكن قد لجأ إلى بلدك بعض المتمردين علينا، فاطردهم من بلدك، وردّهم إلينا في مكة. كما بعثوا مع الوفد هدايا وتحفًا للملِك وحاشيته من الأمراء والقسيسين وغيرهم من علية القوم، لتلين قلوبهم نحوهم، فيسلّموا إليهم المسلمين.

فذهب الوفد إلى الحبشة. وكان من ضمنه عمرو بن العاص ﷺ الذي لم يكن قد أسلم بعد. وكان عمرو هذا قوي الحجة شديد العارضة، وكان يُبعث دائمًا ضمن الوفود الرسمية من قبل المكيين. فألقى أمام النجاشي ملك الحبشة كلمة مثيرة قال فيها: أيها الملك، أنت جارنا. تحكم بلاد اليمن الذي هو في جوار بلادنا الحجاز، ويتحتم علينا الحفاظ على حقوق الجار. ولكن قد اندلعت الآن فتنة جديدة، إذ قد فر من مكة بعض المتمردين علينا ولجئوا في بلادك، وأنت منحت لهم الأمان، فأخذتنا الحيرة بذلك إذ كيف منحت الأمان لأعدائنا وأنت جارنا. فالمرجو منك أن ترجعهم إلى مكة لكي تبقى العلاقات بيننا وبينك على ما يرام، ولا يصيبها توتر ولا خلل. فقال الملك: سأدعو هؤلاء حالاً، وأسمع منهم موقفهم، وأتخذ القرار.

فدعا الملك المسلمين المهاجرين وسألهم وقال: ما هذا النـــزاع بينكم؟ قال الصحابة: أيها الملك، ليس بيننا وبينهم نـــزاع سياسي، وإنما هو اختلاف ديني. لقد بعث الله فينا نبيًّا، فآمنّا به، وهؤلاء لا يسمحون لنا أن نعبد الله تعالى وفق عقيدتنا بحرية، ويتدخلون في أمور ديننا. نريد أن نعبد الله تعالى بطريقتنا، ويريد هؤلاء أن نعبده كما يعبدون، ونحن لا نفعل ذلك، فيغضبون علينا ويضطهدوننا، فجئناك هاربين من وطننا وقومنا.

فكان لهذا الكلام وقع حسن على الملك، فقال لوفد المكيين: إن الاختلاف العقائدي أمر لا بأس به، فلن أرد المسلمين إليكم لهذا السبب (الكامل في التاريخ لابن الأثير) . ثم توجه إلى المسلمين وقال: عيشوا في بلدي بحرية تامة، واعبدوا الله بحسب عقيدتكم دونما خوف.

ولما سمع الوفد المكي قول الملك قرروا استخدام سلاح الهدايا التي أتوا بها، فقدموا هذه الهدايا لكبار القسيسين البطاركة - والبَطْرَك معرب لكلمة (Patriarch) وتطلق على قسيس كبير تقارب درجته في منطقته درجة البابا - وحرّضوهم على المسلمين قائلين: إن هؤلاء عدو مشترك لنا ولكم، فإن عقائدهم تتعارض مع عقائدكم تعارضًا شديدًا، وإنهم يسيئون إلى المسيح وأمه، ولو سمحتم لهم بالإقامة في بلدكم فسيكون هذا بمنـــزلة عدائكم للمسيحية.

وكان طبيعيًا أن يثور هؤلاء المسيحيون ضد المسلمين بسماع هذا الكلام، كما يثور الناس ضدنا نحن المسلمين الأحمديين اليوم، فاستشاطوا غضبًا، وقرروا رفع القضية إلى الملك ثانية في اليوم التالي. وفي الصباح أثار كبار البطاركة والقساوسة هذه المسألة ثانية أمام النجاشي وقد حضر الحاشية فقالوا: أيها الملك، إن القضية ليست سياسية فحسب، بل هي دينية كذلك، فهؤلاء المسلمون لا يخالفون دين المكيين فقط، بل يخالفون ديننا أيضًا، ويسيئون إلى المسيح وأمه، فلا تسمح لهم بالإقامة في بلدك.

فدعا الملك المسلمين ثانية وقال لهم: بلغني أنكم تسيئون إلى سيدنا المسيح وأمه عليهما السلام؟ هل هذا صحيح؟ فتقدم جعفر بن أبي طالب ﷺ - وهو ابن عم الرسول ﷺ وشقيق سيدنا علي ﷺ - ممثلاً للمسلمين وقال للملك: هل تسمح لي، أيها الملك، أن أقرأ على مسامعك آيات من كتابنا الكريم فيها ذكر المسيح وأمه عليهما السلام، وستعرف بها عقيدتنا عنهما. فقرأ سيدنا جعفر ﷺ أوائل آيات سورة مريم. وبما أن المسيحيين يعتقدون عمومًا أن المسيح إله وأن أمه والدة إله، وبما أن هذه الأفكار الوثنية كانت أكثر انتشارًا في بلاد الحبشة، ثار القساوسة لدى سماع هذه الآيات، وصرخوا قائلين إنها تسيء إلى ربنا المسيح. ولكن الملك كان يعتقد خلاف ذلك - إذ كان من المسيحيين الموحدين المؤمنين بوحدانية الله تعالى، وقد ورد في بعض الروايات أنه كان قد أسلم فيما بعد (البخاري: كتاب الجنائز، البداية والنهاية لابن كثير، فصل كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي) - فقال لهم: إن ما يقوله المسلمون هو الحق. بل ورد في بعض كتب التاريخ أن الملك أخذ قشة وقال:

والله، إن مكانة المسيح وأمه لا تزيد عندي على ما ورد في هذه الآيات مثقال هذه القشة. فثار القسيسون أكثر وهددوا الملِك وقالوا: إذا لم تتخذ ضد المسلمين إجراء صارمًا ستندلع ثورة في البلد، وسيتمرد الشعب عليك. فاستشاط الملك غضبًا وقال: لقد تآمرتم مع عمي ضدي وأنا صغير، وحاولتم إبعادي عن العرش، ولكن الله نصرني ووهب لي الملك. فإني ملكٌ بمحض فضل ربي الذي هزمكم ونصرني عليكم. فهل تظنون أنني سأترك في شبابي ربي الذي نصرني في صغري. فافعلوا ما شئتم، فإني لن أحيد عن العدل والإنصاف. ثم أخرج الملك وفد المكيين خائبين، وودّع المسلمين بإعزاز وإكرام.

إذن فقد اتضح من هذه الأحداث جليًّا أن سورة مريم كانت قد نـــزلت قبل الهجرة إلى الحبشة التي حصلت في العام الخامس من البعثة النبوية، وأن هذه السورة كانت معروفة شائعة بين المسلمين إلى ذلك الوقت، حيث قرأها المسلمون المهاجرون أمام ملك الحبشة توضيحًا لعقيدتهم. فثبت أن هذه السورة هي مما نـــزل في أوائل الإسلام وقبل الهجرة إلى الحبشة.

(والروايات المذكورة أعلاه قد ذكرها محمد بن إسحاق في سيرته عن أم سلمة، والإمام أحمدُ في مسنده عن ابن مسعود)

وأما المستشرق رودويل (Rodwell) فيرى أن الآيات رقم ١ إلى ٣٧ من هذه السورة تختلف في أسلوبها عن آيات ٣٥ إلى ٥٧ من سورة آل عمران التي هي الأخرى تتحدث عن الموضوع نفسه. ويزعم رودويل أن محمدًا قد غيَّر الأسلوب في تلك الآيات خوفًا من أن يتهمه العرب بكونه شاعرًا. (ترجمة القرآن لِـــ "رودويل")

ولكنه زعم باطل تمامًا، لأن كل عاقل يعرف ما هو الشعر، والعرب بالأخص كانوا شهيرين في قرض الشعر، فأنى لهم أن يسموا نثر القرآن شعرًا. الحق أن هؤلاء المستشرقين لم يفهموا حتى اعتراض الكفار، ناهيك عن أن يستوعبوا معارف القرآن الكريم. إن الكفار لم يعترضوا بقولهم للنبي ﷺ "إنك شاعر" على كون القرآن كلامًا موزونًا، وإنما قصدوا به أن القرآن يتحلى بروح الشعر وصبغته. لقد ظن المستشرقون أن ورود كلمات "نديًّا" و"رضيًّا" وغيرهما في هذه السورة جعل

الكفار يتهمون محمدًا ﷺ بكونه شاعرًا، مع أنهم قصدوا به أن في وحي القرآن روح الشعر بمعنى أن القرآن يصرف آياته ويبين مراده بأساليب شتى، كما يبين الشاعر مراده بطرق شتى. لقد كان بين العرب شعراء فحول كبار، فأنى لهم أن يعتبروا القرآن شعرًا بمعناه الحقيقي؟

أما "مقاتل" فيرى أن سورة مريم مكية كلها، ما عدا آية واحدة منها فهي مدنية (روح المعاني).

وعندي أن هذه السورة نـــزلت في أواخر السنة الرابعة أو أوائل السنة الخامسة من البعثة النبوية، لأن الثابت تاريخيًّا، كما بينت آنفًا، أن الوفد المكي لما ذهب إلى الحبشة لاسترجاع المسلمين المهاجرين، ورفض الملك طلبهم، حاول الوفد استمالة القسيسين باتهام المسلمين بالإساءة إلى المسيح عليه السلام، فقرأ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه أوائل آيات سورة مريم توضيحًا لعقيدة المسلمين عن المسيح، فاطمأن الملك وصار أشدَّ تمسكًا بموقفه. والهجرة إلى الحبشة هذه حصلت في رجب من السنة الخامسة (الطبقات الكبرى لابن سعد).. أي بعد انقضاء أربعة أعوام ونصف العام على دعوى النبي ﷺ؛ وهذا إذا بدأنا عدّ العام النبوي من شهر محرم، أما إذا بدأناه من منتصف العام، لأن وحي النبوة بدأ نـــزولـــه في شهر رمضان، فتصبح هذه المدة أقل أيضًا. أما أنا فلا أعرف، بالتأكيد، هل كان المؤرخون يعدّون عام البعثة النبوية بدءًا من محرم أم من رمضان؛ فإذا كانوا يبدؤون العد من شهر محرم فتصبح هذه الفترة أربعة أعوام ونصف العام، وإذا كانوا يبدؤونه من رمضان فتصبح هذه الفترة ثلاثة أعوام وعشرة أشهر.

على كل حال، فمن الحقائق الثابتة أن هذه السورة قد نـــزلت قبل الهجرة إلى الحبشة بفترة تمكَّن فيها الصحابة من حفظها عن ظهر قلب. ولا بد أن نعتبر الفترة التي اشتهرت فيها هذه السورة وحفظها الصحابة عن ظهر قلب ستةَ أشهر على الأقل، وبالتالي يصبح زمن نـــزولها أواخر السنة الرابعة من البعثة على الأكثر. علمًا أن نـــزول الوحي على الرسول ﷺ استمر ثلاثة أعوام قبل أن يوجَّه فيه الخطاب إلى المسيحية، ثم بعد مرور ثلاثة أعوام توجّه الخطاب إلى المسيحية فجأة وتفصيلاً

في سورة مريم التي تحدثت عن حادثة ولادة المسيح عليه السلام، وعن الأنباء التي كانت أساسًا لدعواه عند المسيحيين، كما تناولت عقائدَهم والردَّ عليها مصحوبًا بالأدلة والبراهين. ثم بعد نـــزول هذه السورة بأربعة أو خمسة أشهر وقعت الهجرة إلى بلاد الحبشة التي كانت مملكة مسيحية، والتي بدأت فيها المواجهة المباشرة بين المسيحيين والمسلمين حتى ارتد أحد الصحابة المهاجرين متأثرًا بأقوال المسيحيين وتنصَّرَ، وهو عبيد الله بن جحش (شرح الزرقاني: الهجرة الثانية إلى الحبشة)

فنـــزول سورة مريم في تلك الآونة بالذات يدل صراحة على وجود حكمة ربانية عظيمة تمثّل شهادة كبيرة على صدق القرآن الكريم. لقد وُلد رسول الله ﷺ في مكة التي لم تكن فيها للمسيحية من قوة، وما كان معارضوه على صلة بالمسيحية، اللهم إلا ثلاثة أو أربعة من العبيد المسيحيين الساكنين بينهم والذين لم يكن لهم شأن يُذكَر (روح المعاني والدر المنثور، سورة النحل: ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر). واستمر نـــزول الوحي على رسول الله ﷺ لثلاثة أعوام بعد البعثة من دون أن يتناول موضوع المسيحية بالتفصيل. ثم عند نهاية السنة الرابعة أو في بداية السنة الخامسة تحدث الوحي فجأةً عن المسيحية، وناقشها بالتفصيل والإسهاب؛ فأخبر كيف بدأت المسيحية، وما هي الأنباء التي ظهر المسيح بحسبها، وما هي حقيقة المسيحية إزاء الإسلام. وإن هي إلا أيام قلائل حتى تغيرت الظروف بسرعة، فاضطر النبي ﷺ ليأمر أتباعه بالهجرة إلى الحبشة التي هي دولة مسيحية. إن هذه الأمور كلها تبين صراحة أن الذي أنـــزل هذا الوحي هو الله الذي يعلم الغيب. فإنه تعالى لم ير حاجة إلى التطرق إلى المسيحية قبل أن تتهيأ الظروف للمواجهة بينها وبين الإسلام، ولكن لما اقترب موعدها، وأوشكت هجرة المسلمين إلى بلد المسيحيين، نبههم الله وأيقظهم، وأخبرهم باقتراب موعد النـــزال بين الإسلام والمسيحية، وعلّمهم طريق الجدال مع أهلها؛ فأنـــزل بطريق مفاجئ سورةً تنبئ المسلمين بعقائد المسيحية وتعاليمها وحقيقتها الأصلية وغايتها المنشودة.

إذًا، فإن نـــزول سورة مريم تَضمّنَ في طيّاته نبأً يقينيًّا بالهجرة إلى الحبشة، حيث نبه الله المسلمين أنكم ستذهبون عن قريب إلى مكان تواجهون فيه النصارى، فعليكم بمعرفة عقائدهم.

وكانت هذه إشارة بالغة الأهمية لم يفهمها المسلمون الذين أتوا فيما بعد، بينما فهمها المسيحيون، حيث نجد "ريورند ويري" والسير "وليام ميور" يبذلان قصارى جهدهما ليثبتا أن سورة مريم لم تنـــزل في السنة التي نـــزلت فيها في الواقع. يا تُرى، ما للمسيحيين ولهذه السورة سواء نـــزلت في السنة الرابعة أو الثامنة؟ إذا كان مضمونها يبطل المسيحية فنـــزولها في السنة الرابعة أو العاشرة سواء للمسيحيين؛ ولكنك تجدهم يبذلون كل ما في وسعهم ليثبتوا أنها لم تنـــزل قبل الهجرة إلى الحبشة؛ ذلك لأنهم أدركوا أنه لو ثبت نـــزولها قبل هذه الهجرة لكان برهانًا ساطعًا وحاسمًا على أنها كانت تنطوي على نبأ الهجرة إلى الحبشة ووصول دعوة الإسلام إلى البلاد المسيحية. هذا هو الأمر المحرج الذي أصابهم بالذعر والقلق. فبما أنهم لا يألون جهدًا في أن يثبتوا زعمهم أن القرآن خال من أي أنباء، فسعوا لإيجاد سبيل للخروج من هذه المعضلة، لأنهم لن يجدوا جوابًا إذا سألهم المسلمون وقالوا: أخبرونا أيها النصارى، لماذا لم يتطرق القرآن إلى موضوع المسيحية أمام المشركين طيلة ثلاثة أعوام، فلم يتحدث عن تعاليمها، ولا تاريخها ولا عقائدها الخاطئة؛ ثم فجأة ودفعة واحدة تنـــزل سورة كاملة، تنبئ المسلمين بظهور أحداث مفاجئة ستؤدي إلى المواجهة بين المسلمين والنصارى، فيخرج الإسلام لمقاومة المسيحية إلى بلاد تقع تحت النفوذ المسيحي؟ ألا يكشف ذلك أن الله تعالى هو الذي أخبر المسلمين سلفًا بهذه المواجهة الوشيكة بين الإسلام والمسيحية؟ إن الجواب على هذا السؤال كان صعبًا وشاقًّا على المسيحيين فسعوا كل السعي ليبطلوا هذه المعجزة القرآنية العظيمة بإثبات أن هذه السورة لم تنـــزل قبل الهجرة إلى الحبشة. فما كان منهم إلا أن تظاهروا بأنهم علماء وأساتذة، فزعموا أن في كلمات هذه السورة وأسلوبها دلالة على أنها نـــزلت بعد الهجرة إلى الحبشة (تفسير القرآن لِـــ "ويري")؛ وذلك رغم كونهم جاهلين بأساليب اللغة

العربية تمامًا. فإننا لو عرضنا عليهم بعضًا من تمثيليات شكسبير باللغة الإنجليزية، دَعْكَ من اللغة العربية، وسألناهم أن ينظروا في كلماتها وأسلوبها ويخبرونا عن زمن كتابتها، لفشلوا في ذلك فشلا ذريعًا ولزموا الصمت نادمين صاغرين. ذلك لأن تحديد زمن عبارة من العبارات بأي لغة بالنظر إلى كلماتها وأسلوبها إنما يتطلب معرفة تامة شاملة للتاريخ الطويل الذي تطورت فيها تلك اللغة مرحلة تلو أخرى. بل إن المرء سيرتكب رغم ذلك أخطاء كثيرة في هذا التقدير، إذ لو كان هناك شاعر عاش خمسين أو ستين سنة، واستخدم في قصائده التي قرضها في أوائل حياته كلمات ترك استخدامها في قصائده التي نظمها في أواخر حياته؛ ولو نظرنا في بعض قصائده فيمكننا القول، بالنظر إلى كلماتها، إنها من أوائل حياته أو أواخرها. ولكن هذا التقدير أيضًا لا يكون إلا بناء على بعض الكلمات فحسب، أما تحديد زمن قصائده بالنظر إلى أسلوبها فهذا غير ممكن لأحد. خذوا على سبيل المثال الشاعر الكبير عندنا "غالب"، فقد قال أهل النقد عن شعره إن بإمكانهم أن يشيروا إلى أبيات سهلة الكلمات والأسلوب من بين قصائده الأخيرة، تمامًا كما بإمكانهم أن يشيروا إلى مثلها من بين قصائده الأولى؛ فمن الخطأ القول أن شعره قد تطور في أواخر حياته.

فثبت أن ما يقوله القسيس ريورند ويري والسير وليام ميور هنا لزعم باطل، وليس غرضهما منه إلا أن يتظاهرا بأنهما من كبار الأساتذة والأدباء بحيث إنهما قادران على تحديد زمن عبارة من العبارات بالنظر إلى أسلوبها. والحق أنه ليس بوسع أحد أن يحدد ذلك ولو كان من الأدباء العظماء الأفذاذ. فمثلا لو أن هؤلاء المسيحيين وجهوا هذا السؤال نفسه إلى كبار الأدباء المعاصرين من ألمانيا وفرنسا وأمريكا وإنجلترا، وطلبوا منهم تحديد زمن بعض القصائد لشعرائهم المشهورين الكبار بناء على أساليبها، لردّوا عليهم بقولهم: لسنا بمنجّمين حتى نعلم ذلك، لأن هذا محال، اللهم إلا أن يكون عند أحد معرفة شخصية يقينية بالسَّنَة التي نظم فيها الشاعر قصيدة معينة. ومع ذلك يجلس هؤلاء المستشرقون، للأسف الشديد، على

كرسي الفتوى لتحديد زمن آيات الذكر الحكيم! وليس غرضهم من ذلك إلا التقليل من عظمة نبأ من الأنباء القرآنية الثابتة اليقينية، وإخفاء صدق الإسلام.

إذن فإن ما فعله "ويري" و"ميور" لدليل حاسم على أنهما قد أدركا أن نـــزول سورة مريم في تلك الظروف قد جعل منها نبوءةً عظيمة كشفت عن أحداث المستقبل، فأراد الاثنان إخفاءها بقولهما أنها نـــزلت بعد الهجرة إلى الحبشة. إنه بالفعل نبأ قرآني عظيم، حيث لم يزل وحي القرآن ينـــزل وينـــزل طيلة ثلاث سنوات بدون التطرق إلى المسيحية بالتفصيل، ولكن ما إن اقترب زمن المواجهة بين المسيحية والإسلام إلا ونـــزلت سورة كاملة عن المسيحية، ثم بعد ستة أشهر أو سنة يهاجر المسلمون إلى بلد مسيحي، فتجري هنالك مناظرات بينهم وبين النصارى يقع ضحيتها أحد المسلمين حيث ينصّره المسيحيون، أما المسلمون فيقع الملك المسيحي صيدًا لهم معلنًا إسلامه. ألا تشكل كل هذه الأمور برهانًا عظيمًا على صدق الإسلام؟

واعلم أن القرآن لم يتناول موضوع المسيحية بعد نـــزول سورة مريم إلا في المدينة. صحيح أنه قد تحدث عن المسيحية في الفترة المكية أيضًا، ولكن إشارةً لا تفصيلا. إنما استأنف هذا الموضوع بالإسهاب ثانية في المدينة في السنة الثانية أو الثالثة بعد الهجرة، وذلك في سورة آل عمران التي يدل محتواها على كونها سورة مدَنية، حيث تحدثت عن غزوة أحد والأحداث المتعلقة بها. ثم تناول القرآن المسيحية في سورة النساء التي هي الأخرى مدَنية، بل بدأ نـــزولها بعد سورة آل عمران في السنة الرابعة، ونـــزلت بعض آياتها بعد تلك السنة. ثم عالج القرآن موضوع المسيحية بشيء من التفصيل في سورة المائدة التي نـــزلت بعد سورة النساء في المدينة، وقد نـــزلت معظمها في العامين الخامس والسادس بعد الهجرة، بل إن بعض آياتها نـــزلت قبيل وفاة النبي ﷺ (البحر المحيط). فثبت أن سورة مريم هي الوحيدة التي تحدث فيها القرآن عن المسيحية مباشرة وتفصيلا قبل الهجرة إلى المدينة، وقد نـــزلت هذه السورة – كما تدل عليه القرائن – في أواخر السنة الرابعة أو أوائل السنة الخامسة من البعثة النبوية، وقد حفظها الصحابة عن ظهر

قلب قبل الهجرة إلى الحبشة وقرءوها أمام ملِكها. إذن فإن زمن نـــزولها يكشف جليًّا أنها تنبأت عن اقتراب زمن المواجهة بين المسيحية والإسلام، كما تضمنت إشارة واضحة إلى الهجرة إلى الحبشة، مما يؤكد أن القرآن الكريم قد نـــزل من لدن عالم الغيب ﷻ.

لقد كان من أسلوب القرآن التنبؤ سلفًا عما سيمر به المسلمون من أحداث وأحوال حتى إذا تحقق وحي الله في موعده زاد المؤمنين إيمانًا مع إيمانهم. وعندي أن هذا الأمر قد أثر في قلب القسيس ريورند ويري والسير ميور، فراحا جاهدين ليثبتا أن هذه السورة نـــزلت بعد الهجرة إلى الحبشة أو قبيل هجرة المدينة، ضاربَين بشهادة التاريخ والحديث عرض الحائط. وإن تصرفهما هذا لدليل واضح على أنهما قد فطنا إلى أن في موعد نـــزول هذه السورة إشارة ربانية بينة، فراحا يحاولان عبثا أن يثبتا أن هذه السورة لم تنـــزل في الوقت الذي نـــزلت فيه في الحقيقة. فما الذي دفعهم، يا تُرى، إلى هذا التزييف رغم وجود الشهادة التاريخية؟ إنما السبب أنه لو ثبت نـــزولها في الوقت الذي يؤكده التاريخ لكان آية عظيمة على صدق الإسلام.

قد يقول قائل هنا: كيف نصدق أن الله تعالى هو الذي أنـــزل هذه السورة، ولم لا نقول إن محمدًا نفسه فكر أن المعارضة في مكة قد بلغت ذروتها فلا مناص للمسلمين من الهجرة، ومن الأفضل أن يهاجروا إلى الحبشة، فتحدث عن المسيحية في القرآن.

والجواب أن هذا ممكن عقلاً بدون شك، ولكن العقل نفسه يفرض أن يمدح محمد ﷺ المسيحية في هذه الحالة ويثني عليها، ولكن سورة مريم كلها دحض وإبطال للمسيحية.

ومما لا شك فيه أيضًا أنه بإمكان النبي ﷺ أن يفكر في إرسال المسلمين إلى الحبشة، ولكن من ذا الذي أخبره أنهم سيمكثون هنالك فترة طويلة، وأنهم سيخوضون المناظرات مع المسيحيين، لذا لا بد لهم من أن يكونوا على معرفة تامة بعقائدهم؛ فإن هذه السورة لا تنبئ عن الهجرة فحسب، بل تخبر أيضًا أن النـــزال

مع المسيحيين سيطول، وأن كلا من الفريقين سيقدم شتى الأدلة والبراهين في هذا الجدال.

فثبت أن هذا القول مجرد وسوسة لا أساس لها من الصحة. الحق أن المسيحيين قد فطنوا إلى معجزة القرآن هذه، فبذلوا كل ما بوسعهم ليُثبتوا أن هذه السورة لم تنـــزل إلا بعد الهجرة إلى الحبشة. فيقول ميور مثلاً: لا شك أن سورة مريم تشير إلى الهجرة، ولكن ليس إلى الحبشة، وإنما إلى الطائف. وهذا يعني أنه يحاول أن يثبت أنها نـــزلت في أواخر الفترة المكية حين ذهب النبي ﷺ إلى الطائف، مع أن هذا غلط تمامًا. لا شك أن بعض العبيد المسيحيين كانوا يعيشون في الطائف، حيث نقرأ في حادث الطائف ذكر أحدهم واسمه عداس، الذي لقي النبي ﷺ، وأبدى نحوه ﷺ حبًّا شديدًا؛ ولكن مثل هؤلاء العبيد المسيحيين كانوا موجودين في مكة أيضًا، والثابت تاريخيًّا أن حرفتهم كانت الحِدادة أو ما شابه ذلك من الأعمال. أما المسيحي المذكور في سفر الطائف فيخبرنا التاريخ أن النبي ﷺ سأله: من أين أنت؟ فقال: أنا من نينوى. فقال ﷺ: التي أُرسل إليها أخي يونس؟ ثم بلّغه النبي ﷺ دعوة الإسلام، فقبّل يده المباركة من فرط المحبة والفرحة (السيرة النبوة لابن هشام: سعي الرسول ﷺ إلى ثقيف). فلا ننكر وجود بعض المسيحيين بالطائف، ولكنا نقول إنه لم يجر معهم أي جدال ديني حتى نطبق هذه السورة على سفر الطائف.

هذا، وقد حاول القسيس "ويري" أيضًا محاولة خفية أن يثبت أن هذه السورة نـــزلت بعد الهجرة إلى الحبشة، فيقول: لم تنـــزل هذه السورة في أواخر الفترة المكية في السنة الحادية عشرة كما يقول ميور، ولا في الفترة التي يذكرها المسلمون، وإنما نـــزلت بعد الهجرة إلى الحبشة في السنة الخامسة أو السادسة في مكة. ويضيف "ويري": ويتضح من الأحداث المذكورة فيها جليًّا أن معرفة محمد (ﷺ) بالكتاب المقدس كانت ضئيلة جدًّا، والذين ساعدوه أيضًا لم يعرفوا من الكتاب المقدس إلا القليل (تفسير القرآن لـــ "ويري").

ولسوف أرد على زعم ميور هذا لدى تفسير الآيات القادمة.

ترتيبها:

أما صلة سورة مريم بما قبلها من السور فهي أن سورة بني إسرائيل (الإسراء) تخبرنا كيف يزدهر الإسلام، فتقول إن الأمة المحمدية شبيهة بالأمة الموسوية، وأنها ستنال الغلبة على النحو الذي نالتها أمة موسى. ومن أجل ذلك ذكَر الله تعالى في سورة بني إسرائيل بعضًا من أحداث أمة موسى، مبينًا أنه تعالى كان قد قدر لها دمارَين بعد زمن موسى، كما كتب لها فترتين من الرقي والغلبة؛ وهكذا سيُفعل بالمسلمين أيضًا.. أي أنه سيحل عليهم دماران، كما ستأتي عليهم فترتان من الرقي بعد العهد النبوي تمامًا كما حصل بأمة موسى بعد رحيله. وهذا ما حدث بالضبط، فكما أن الدمار الأول حل ببني إسرائيل بعد عهد داود عليه السلام الذي كان يشكّل فترة رقي كبير، ودُمّرت أورشليم مركز اليهود تدميرًا (الموسوعة التوراتية:Jews)، كذلك تمامًا حل الدمار الأول بالمسلمين بعد النبي ﷺ في زمن الحكم العباسي الذي كان زمن ازدهار عظيم، ودُمّرت بغداد التي كانت العاصمة الإسلامية تدميرًا. وكما أن الدمار اليهودي الأول تَمثَّل – على الأغلب – في دمار أورشليم العاصمة اليهودية حين دمرها نبوخذنصر، وأخذ معه ثرواتها، وأجلى اليهود؛ كذلك تمامًا حل الدمار الأول بالمسلمين في عاصمة الحكومة الإسلامية خاصة، فهرب منها علماؤها وتشتتوا، واستولى عليها الأعداء (كتاب العبر لابن خلدون: الجزء الثالث، وفاة المستنصر وخلافة المستعصم آخر بني العباس ببغداد) .

ثم إن الدمارين قد حلا بالأمتين في زمن متقارب، أعني أن بغداد قد دُمرت بعد النبي ﷺ بفترة تقارب الفترة التي حل فيها الدمار بأورشليم بعد موسى عليه السلام.

أما الدمار اليهودي الثاني الذي حل في عهد تيطس الروماني فقضى على الحكومة اليهودية تمامًا، حتى اضطر اليهود لترك وطنهم، فهرب بعضهم إلى الأراضي الإيرانية، وبعضهم إلى مصر (الموسوعة التوراتية: Jews). ونفس المصير كان مقدرًا للمسلمين عند دمارهم الثاني؛ فكما أن الدمار الثاني اليهودي بدأ على يد الرومان وقبيل ظهور المسيح عيسى عليه السلام واستمر بعده لفترة، كذلك بدأ الدمار

الثاني العام للمسلمين قبيل دعوى المسيح الموعود عليه السلام، على يد القوى المسيحية الغربية التي كانت تنوب عن الإمبراطورية الرومانية، فأصابهم الضعف في كل مكان، ودمرت دولهم، ولم يبق للحكومة الإسلامية في العالم من أثر، وأصيب الإسلام بنكسة كبيرة تارة أخرى. واستمر دمار المسلمين هذا في زمن المسيح الموعود وهو مستمر بعده أيضًا، ولكن المقدر – كما هو واضح من الأنباء – أن الله تعالى سيبدل دمارهم إلى رقيًّا بعد فترة من الزمن، وسيكونون هم الغالبين في العالم ثانية.

هذا، وإن اليهود قد نهضوا بعد الدمار الأول ثانية عن طريق قوم كانوا أعداء لهم من قبل، حيث عادوا بهم إلى أرضهم من الجلاء، وأعانوهم على تعمير أورشليم ثانية (الموسوعة التوراتية: Jews). وقد ظهرت بعد الدمار الأول للمسلمين آية مماثلة لها بل أفضل منها، وبيانها أن ملك ميديا وفارس قد أعان اليهود على تعمير أورشليم ثانية، ولكنه لم يعتنق اليهودية إنما كان مواسيًا لهم ومتعاطفًا معهم، ولكن الملوك المغول الأتراك الذين قضوا على الحكم الإسلامي قد اعتنقوا الإسلام بعد ذلك، وأخذوا يعملون على إحيائه وازدهاره بدلاً من العمل على هلاك المسلمين، حتى دخل الإسلام على أيديهم في مرحلة جديدة من الرقي والازدهار (البداية والنهاية لابن كثير: السلطان بركه خان بن تولى بن جنكيز خان).

أما الدمار اليهودي الثاني فاعتنق بعده الشعب الحاكم* المسيحية، وقد ازداد شغفهم باليهودية أن بدءوا يقدسون التوراة ويبجلون أنبياء بني إسرائيل مع احترامهم لمقدسات النصارى (الموسوعة البريطانية: Jews). والأمر نفسه مقدر للمسلمين، فإن القوى الغربية الحاكمة التي أصابت الإسلام بالضعف ودمرت المسلمين ستدخل في الإسلام في يوم من الأيام، وستُكتب الغلبة والعزة ثانية للدين الذي جاء به محمد رسول الله ﷺ.

---

* يشير حضرة المفسر إلى الشعب الروماني الذي كان حاكمًا على أرض فلسطين حيث تنصر الإمبراطور الروماني قسطنطين في القرن الثالث الميلادي. *(المترجم)*

إن هذا الموضوع المذكور في سورة بني إسرائيل قد زاده الله تعالى وضوحًا في سورة الكهف، حيث بين فيها أنه سيكتب الغلبة للمسلمين بعد دمارهم الثاني على النحو الذي كتبه للأمة الموسوية بعد دمارها الثاني. وما هي تلك الطريقة، وكيف تحوَّل الدمار الثاني للأمة الموسوية إلى رقي لها؟ إن العالم المسيحي يعرف ذلك جيدًا. فإن الجناح الذي كان يمثّل الأمة الموسوية في تلك الفترة* قد نـــزع الله تعالى منه الأمر تمامًا، ووفّق جماعةَ المسيح الناصري عليه السلام – الذي أعلن أنه لم يأت ليغيّر الناموس، بل جاء ليكمله (متى ٥: ١٧-١٨) – لتبليغ دينه توفيقًا عظيمًا حتى أُقيمت بواسطتهم حكومة التوراة في العالم ثانية وبشكل جديد، وإن الأمة الموسوية التي كانت شبهَ ميتة قد كتب الله تعالى لها الازدهار تارة أخرى نتيجة إيمانها بآخر خلفاء الأمة الموسوية المسيحِ الناصري عليه السلام. وقد أكد الله تعالى في سورة الكهف أن القدر نفسه ينتظر المسلمين.

وقد وضع الله تعالى سورة مريم بعد سورة الكهف، وذكر فيها أحداث المسيح عليه السلام، تنبيهًا للمسلمين أنه ستظهر فيهم أيضًا آية مماثلة سينهضون ببركتها مرة أخرى؛ فكما أن رقي الأمة الموسوية كان منوطًا بمسيح بُعث فيها، كذلك فإن الإسلام أيضًا سيزدهر على يد مسيح موعود للمسلمين؛ وكما أن تلك الأمة غلبت ثانية بواسطة أصحاب الكهف أي أتباع المسيح الناصري، كذلك سيخلق الله في الإسلام أصحاب الكهف الجدد لنصرة المسيح الموعود، وعن طريقهم سيعود الإسلام غالبًا مرة أخرى.

هذا، وقد ذكر الله تعالى في سورة الكهف معراجًا لموسى عليه السلام، موضحًا أن معراجه هذا تضمن نبأ رقي الإسلام، كما أخبر أيضًا أن تحقق هذا المعراج الموسوي في حق المسلمين سيؤدي إلى عداء شديد بين الأمتين المحمدية والموسوية، وسيتولد الحسد والعداء في الأمة الموسوية تجاه الأمة المحمدية زمن ازدهارها؛ وكما هو

* وهم اليهود الذين لم يؤمنوا بالمسيح الناصري عليه السلام *(المترجم)*.

معروف فإنه إذا غفل أحد الخصمين قليلاً قتله الآخر على حين غفلة منه، كذلك سيحصل بالأمتين، فيتغلب حملة لواء الأمة الموسوية، أي أتباع المسيح الناصري، على المسلمين على حين غفلة منهم.

ثم توضيحًا لهذه المماثلة بين الأمتين، سرد الله تعالى في سورة الكهف حادثًا قديمًا وقع مع بني إسرائيل وهو حادث ذي القرنين، وأخبر أنه تعالى منح اليهود المغلوبين الحكمَ ثانية بواسطة هذا الملك، وأن هذا التاريخ سيعاد مع المسلمين أيضًا، وسينقذ الله المسلمين المقهورين من الدمار الشامل، وسيهيئ الأسباب لحمايتهم وغلبتهم ثانية، بواسطة ذي القرنين الثاني.

ثم بعد ذلك جيء بسورة مريم. وقد سبق أن بينت أن مضمون السور السابقة لها يوضح أن فترة رقي الإسلام وزواله مشابهة لفترة ازدهار أمة موسى وانحطاطها. فكما أن إحياء الأمة الموسوية بعد انحطاطها تم على يد المسيح الناصري عليه السلام الذي كان آخر حلقة من السلسلة الموسوية، كذلك تمامًا سيتم إحياء الأمة الإسلامية، بعد انكسار شوكتها وزوال مجدها، على يد المسيح المحمدي الذي هو آخر حلقة من السلسلة المحمدية؛ ولكن بما أن المسيح الناصري كان الحلقة الأخيرة من السلسلة الموسوية وكان أتباعه هم الذين تسببوا في ضعف الإسلام وانحطاطه، فلن تتم المواجهة الحقيقية إلا بين الأمة المحمدية وأتباع المسيح الناصري حين يحرز الإسلام الرقي ثانية. وعليه فإذا أردنا دراسة الموضوع من الناحية التاريخية فيجب علينا دراسة تاريخ الأمة المسيحية لا تاريخ الأمة الموسوية، لأن أتباع المسيح عليه السلام هم العدو الحقيقي للإسلام. ومن أجل ذلك نجد أن القرآن الكريم بعد أن بين مواضيع مختلفة في سورة الكهف يتجه الآن، في سورة مريم، إلى بيان أحوال قوم تقع بينهم وبين المسلمين المواجهة الحقيقية، مبينًا أن المسلمين دُمروا بسبب المسيح أي عن طريق أتباع المسيح الناصري عليه السلام، فإذا أراد المسلمون النجاة من الهلاك فلن ينجوا أيضًا إلا عن طريق المسيح أي بتصديق المسيح الموعود عليه السلام. ومن أجل ذلك أخذ الله تعالى في سرد تاريخ المسيحية في سورة مريم، منبهًا المسلمين أن تاريخها سيكون منارة نور لهم، فعليهم أن يضعوها نصب أعينهم، ويتذكروا كيف وُضع أساسها،

لأن إحياء المسلمين أيضًا سيتم على منوال المسيحية. وكأن سورة مريم ثالث حلقة في سلسلة تمثِّل سورةُ بني إسرائيل وسورة الكهف الحلقتين الأولى والثانية منها، لأن موضوع هذه السور الثلاث واحد، وأسلوبها واحد كذلك.

ولهذه السورة صلة مباشرة أخرى بسورة الكهف، وهي أن سورة الكهف ركزت في آياتها الأخيرة على الشرع والتوحيد، وأما سورة مريم فبدأها الله تعالى بذكر المسيح عليه السلام الذي كان من المقدر أن تتولد بسببه شبهتان خطيرتان عن الشرع والتوحيد، فأزال الله تعالى هاتين الشبهتين في سورة مريم.

وثمة صلة أخرى بين السورتين وهي أن سورة الكهف تتحدث عن نهاية المسيحيين، وأما سورة مريم فتتحدث عن بدايتهم. ويبدو، في بادئ الأمر، أن الترتيب المعاكس كان هو الأفضل والأولى، ولكن لا بأس بهذا الترتيب أيضًا، إذ إن البذرة تكون خفية، ولا تنكشف حقيقة شيء إلا بعد ظهوره تماما، ولذا أخر الله تعالى سورة مريم في الترتيب، لكي يعرف المسيحيون وغيرهم كيف بدأ أمرهم وبأي شكل انتهى.

ملخص محتواها:

في المقطع الذي تستهلّ به هذه السورة – وهو اختزال لبعض صفات الله تعالى كما بينت – لقد عقد الله تعالى المقارنة بين عقائد الإسلام وعقائد المسيحية، مبينًا أن الديانة المسيحية كانت في أصلها من عند الله تعالى، ولكن تسربت إليها، بمرور الأيام، عقائد تخالف الحق، وتنافي صفات الله تعالى. هذه هي خلاصة المقطع ﴿كهيعص﴾.

وبعد ذلك تبدأ قصة المسيح بذكر زكريا عليهما السلام، وذلك لأن أكبر ما كان شائعًا بين اليهود من علامات ظهور المسيح هو نزول إيلياء من السماء قبل ظهور المسيح (ملاخي ٤: ٥)؛ وإن أهم سؤال وُجِّه إلى المسيح بعد ظهوره هو هذا السؤال نفسه، وقد ركز الإنجيل أيضًا على الرد على المسألة نفسها، موضحًا أن ليس المراد من إيلياء إلا يحيى (متى ١١: ١٤، و١٧: ١٢، ومرقس ٩: ١٣)، وأن

إيلياء ما كان لينـــزل من السماء، وإنما كان لا بد أن يظهر من الأرض ويولد من بطن أمه (متى ١١: ١١، ولوقا ٧: ٢٨). هذا ملخص قوله تعالى: ﴿ذكرُ رحمةِ ربك عبدَه زكريا﴾ إلى قوله تعالى ﴿يوم يُبعث حيًّا﴾.

ثم بعد ذكر إيلياء، تحدث الله تعالى عن المسيح، ولكن بدأ حديثه بذكر أمه بدلاً من ذكر دعواه، إذ بميلاده وُضع الأساس للأمة المحمدية؛ وبيان ذلك أن إبراهيم كان له من زوجتين ابنان: إسماعيل الابن البكر وإسحاق الابن الثاني عليهم السلام جميعًا، وكان لله مع إبراهيم عهود تخص ابنيه كليهما. والوعود الإلهية الخاصة بإسماعيل مذكورة في الأماكن التالية من التوراة: التكوين ١٦: ١٠-١٢، و١٧: ٨-١٤ و١٨-٢٠، ٢١: ١٣-٢١. أما وعود الله تعالى الخاصة بإسحاق فوردت في التكوين ١٧: ١٩-٢٠. وثمة أنباء مشتركة عن الابنين في التكوين ٢٢: ١٧ و١٨.

وعندما ندرس هذه الوعود والأنباء مع ما ورد في التكوين ١٧: ٢١ يتضح لنا جليًّا أن الله تعالى كان قد قدر تحقيق وعوده هذه مع إبراهيم بدءًا من ابنه إسحاق، ولكنه تعالى لا بد أن يحققها من خلال الابنين كليهما. وهذا يوضح أن النبي الأخير الذي قدر ظهوره وفق هذا الوعد الإبراهيمي كان سيأتي في نسل إسماعيل. ولكن بما أن نقل هذا العهد الإبراهيمي من نسل إسحاق إلى نسل إسماعيل كان سيصيب الفريق الأول بصدمة كبيرة، فكان لزامًا أن يتم نقله إلى بني إسماعيل ببطء وتدريج، وكان لا بد من أن يكون هذا النقل مدعمًا بالأدلة والبراهين.

فأخبر الله تعالى، في الآيات التي ألخصها الآن، أنه تعالى قرر أخيرًا تحقيق هذا الوعد من خلال بني إسماعيل بدلاً من بني إسحاق بسبب النقض المتكرر المتوالي للعهد من قبلهم. وكتحذير نهائي، قرر الله تعالى أن يخلق ابنًا من عذراء، ويجعله خليفة لموسى، فصار بذلك العهد الذي كان سيتحقق بواسطة بني إسرائيل ناقصًا، أعني انقطعت علاقة هذا الابن عن بني إسرائيل من جهة الآباء، وبقيت لـــه علاقة الأم فقط التي كانت من بني إسرائيل.

علمًا أن الناس في الماضي ظنوا أنه من المستحيل أن تلد المرأة بدون الاتصال بالرجل – ورغم أنه لا مستحيل أمام الله تعالى إلا أن الناس كانوا يعتقدون ذلك خلافًا لسنة الله تعالى – فقد أثبتت البحوث العلمية الحديثة أن مثل هذه الولادة ليست خلاف سنة الله تعالى، بل هي ضمن نواميس الطبيعة. وأسجل فيما يلي شهادة حديثة بهذا الصدد.

لقد قدم الدكتور Halen Superway من جامعة (U C L) بلندن نظريته أن حمل الأنثى لا يحتاج بالضرورة إلى الذَّكَر على الدوام. وكانت مجلة Lancet الأسبوعية الصادرة بلندن قد نشرت أخبارًا لمثل هذه التجارب. فلما علقت جريدة SUNDAY PICTORIAL اللندنية في عددها الصادر في ٦ نوفمبر ١٩٥٥ على النظرية المذكورة أعلاه، نشرت المجلة السالفة الذكر مقالا في عددها الصادر يوم ١٣ نوفمبر ١٩٥٥ تضمَّنَ شهادة ثلاث سيدات قالت كل واحدة منهن إن ولدها الحالي قد جاء تلقائيًّا وليس في ولادته دخل لأي رجل.

ثم سجلت هذه المجلة في عددها الصادر يوم ٢٨ ديسمبر شهادة من قبل ١٩ سيدة مررن بمثل هذه التجربة.

فبما أن القرآن الكريم أراد أن يبين أن الوعد الإبراهيمي قد تحقق الآن بواسطة محمد رسول الله ﷺ الذي هو من نسل إسماعيل، فقد ذكر ولادة المسيح عليه السلام من غير أب بالتفصيل، مبينًا أن هذه الولادة كانت إشارة إلى انتهاء موعد تحقق الوعد الإبراهيمي بواسطة بني إسحاق، حيث قلل الله من خلال ولادة المسيح العجيبة أهميةَ دورهم في تحقيق هذا الوعد إلى النصف، أما النصف الباقي فقضى عليه أتباع المسيح أنفسهم، حيث تركوا عادة الختان (قاموس الكتاب (بالأردية) تحت كلمة الختان)، قاطعين صلة هذا العهد عن بني إسحاق إلى الأبد، مع أن الختان كان شرطًا هامًّا للوعد الإبراهيمي، حيث ورد قول الله تعالى لإبراهيم في التوراة:

"هذا هو عهدي الذي بيني وبينك وبين ذرِّيَّتك من بعدكَ الذي عليكم أن تحفَظوه: أَنْ يُختَتَنَ كلُّ ذَكَرٍ منكم، تختِنون رأسَ قُلْفةِ غُرْلتِكم فتكون علامةَ العهدِ الذي بيني وبينكم" (التكوين ١٧: ١٠-١١)

ثم جاء فيها:

"فيكون عهدي في لحمكم عهدًا أبديًّا، أما الذَّكَرُ الأَغْلَفُ الذي لم يُختَنْ، يُستَأصَلُ من بين قومه لأنه نكَث عهدي". (المرجع السابق: ١٤)

هذا ملخص قول الله تعالى ﴿واذكُرْ في الكتاب مريم﴾ إلى قوله تعالى ﴿وما كانت أمُّك بَغيًّا﴾.

ثم سرد الله تعالى بعض الأحداث التي وقعت في حياة المسيح عليه السلام، وساق البراهين على صدقه عليه السلام، كما أبطل أيضًا بعض الدعاوى الزائفة التي نسبها إليه أتباعه. وهذا موجز معاني قول الله تعالى ﴿فأشارت إليه﴾ إلى قوله تعالى ﴿إذا قضى أمرًا فإنما يقول لـــه كُنْ فيكون﴾.

بعدها عطف سبحانه وتعالى عنان الحديث إلى ذكر رسول الله ﷺ، مبينًا أن الأحداث السابقة وبعثة المسيح انطوت على نبأ ظهور شخص موعود من بني إسماعيل ألا وهو محمد رسول الله ﷺ؛ ولكن الناس يعارضونه، والسبب الرئيسي لهذه المعارضة هو أنهم كثرة، ولكن الكثرة ليست بدليل. والدليل على كونهم على الباطل أن بينهم خلافات شديدة. إن كثرتهم لن تغني عنهم شيئًا، فمصيرهم الهلاك في آخر المطاف.

هذه خلاصة معاني قول الله تعالى ﴿وإن الله ربي وربكم فاعبدوه﴾ إلى قوله تعالى ﴿فويل للذين كفروا من مَشهَدِ يومٍ عظيمٍ﴾.

ثم بين الله تعالى أنهم لا يكفّون اليوم عن الطعن والاعتراض، ولا يريدون أن يسمعوا شيئًا عن الإسلام، ولكنهم سيسمعون جيدًا ويبصرون جيدًا يوم يرون العذاب الأليم.

هذا هو معنى قوله تعالى ﴿أَسمِعْ بهم وأَبصِرْ﴾ إلى قوله تعالى ﴿وإلينا يُرجَعون﴾.

وبعد ذلك أسهب الله تعالى في بيان ذلك العهد الإبراهيمي الذي سبقت الإشارة إليه، فأخبر سبحانه وتعالى كيف حققه تعالى بواسطة إسحاق وموسى.

وهذا موجز قوله تعالى ﴿واذكُرْ في الكتاب إبراهيم﴾ إلى قوله تعالى ﴿ووهبنا لـــه من رحمتنا أخاه هارون نبيًّا﴾.

وبعدها ذكر الله تعالى إسماعيل ليبين أن هذا العهد كان لا بد أن يتحقق في حق إسماعيل كما تحقق لصالح إسحاق من قبل. وقد ذُكر موسى هنا قبل إسماعيل، مع أنه بُعث بعده، لأن بعثته كانت جزءًا من الوعد الذي تحقق لصالح إسحاق قبل إسماعيل.

وهذا ملخص قول الله تعالى ﴿واذكرْ في الكتاب إسماعيل﴾ إلى قوله تعالى ﴿وكان عند ربه مرضيًّا﴾.

ثم ذكر الله تعالى إدريس عليه السلام وقال ﴿ورفعناه مكانًا عليًّا﴾، وذلك لبيان أنه يشبه المسيح عليه السلام في رفعه الروحاني، فقد ورد في التوراة أن أخنوخ – وهو إدريس عند العرب لأنه كان يُسمع الناس حديث الله تعالى (فتح البيان) – سار مع الله تعالى (التكوين ٥: ٢٢).. والسير مع الله تعالى يعني معرفة صفاته تعالى، فالمعنى أنه كان مظهرًا عاليًا لصفات البارئ تعالى.

ثم ورد عن إدريس في التوراة: ثم تَوارى مِن الوجود، لأنّ اللهَ نقَله إليه". (المرجع السابق: ٢٤) – وقد عبر القرآن عن هذا المعنى بقوله تعالى ﴿ورفعناه مكانًا عليًّا﴾، وقد وردت في القرآن في حق المسيح أيضًا كلمات مشابهة– ومع ذلك لا يتخذ المسيحيون أخنوخ إلهًا، بل يعتبرونه واحدًا من البشر. فلماذا، يا تُرى، جعلوا المسيح إلهًا بسبب هذه الكلمات؟ والحق أن أخنوخ كان أفضل من المسيح بحسب التوراة، إذ ذهب إلى السماء بدون أن يموت، ولم يذق، كالإله الابن، الموتَ قط.

هذه خلاصة قول الله تعالى ﴿واذكُرْ في الكتاب إدريس﴾ إلى قوله تعالى ﴿ورفعناه مكانًا عليًّا﴾.

ثم قال الله تعالى إن هؤلاء الأنبياء جميعًا، بدءًا من آدم ومرورًا بنوح ووصولاً إلى آخر أنبياء بني إسرائيل، كانوا بشرًا ومطيعين لله تعالى، فبأي حجة يمنح النصارى المسيح منصب الألوهية دون الآخرين.

وهذه خلاصة قول الله تعالى ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم﴾ إلى قوله تعالى ﴿خرّوا سُجّدًا وبُكِيًّا﴾.

ثم بين الله تعالى أن الناس نسوا الشرائع السماوية، وانغمسوا في اللهو واللعب، فلن تكون عاقبتهم الحسنى، وإنما تُكتب العاقبة الحسنة للذين يتوبون عن المنكرات ويستمعون لأوامر الله تعالى.

هذا ملخص قوله تعالى ﴿فخلَف مِن بعدهم خَلْفٌ﴾ إلى قوله تعالى ﴿هل تعلَم لـــه سَمِيًّا﴾.

وبما أنه كان من المقدر أن ينكر الناس في هذا الزمن البعث بعد الموت أكثر من أي زمن مضى، لذا فقد ذكر الله تعالى نعمه وإنكار الناس لها، ثم برهن بذلك على أن الحياة بعد الموت ليس بأمر غريب، بل إنه أمر يقين، ولا بد للمجرمين من عقاب، وللصالحين من جزاء.

هذا ملخص قول الله تعالى ﴿ويقول الإنسان أإذا ما متُّ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ونذَر الظالمين فيها جثيًّا﴾.

ثم تحدث الله تعالى عن إحدى الحيل التي يلجأ إليها أعداء الحق، فإنهم حين يُنذَرون بعذاب الآخرة يقولون: دَعُوا حديث الغد للغد، وأخبِرونا الآن من هو أحسن حالاً اليوم، ومن هو أكثر مالاً وجندًا؟ فيرد الله عليهم ويقول: إن الحق يتغلب بالتدريج، وإلى أن يأتي يوم غلبته على المرء أن يرى من ذا الذي يملك البرهان والدليل، ويتحلى بروح التضحية والسيرة الطيبة، فمن كان عنده البرهان والنموذج الحسن، فالنصر حليفه في آخر المطاف في الدنيا أيضًا.

هذا موجز معاني قول الله تعالى ﴿وإذا تُتلى عليهم آياتُنا بيّناتٍ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ونَرِثُه ما يقول ويأتينا فردًا﴾.

وبعدها بين الله تعالى أن أعداء الحق يقعون دائمًا في الشرك، ويرونه مدعاة لقوتهم، مع أن الشرك يؤدي إلى الخزي والهزيمة على الدوام، فإن الأشياء التي يرون فيها قوتهم نفسَها تؤدي إلى ضعفهم وهلاكهم.

وذلك هو المراد من قول الله تعالى ﴿واتخذوا مِن دون الله آلهةً﴾ إلى قوله تعالى ﴿ويكونون عليهم ضدًّا﴾.

ثم أخبر الله تعالى أن الكافر حين يعجز عن تقديم الدليل والبرهان يلجأ إلى العدوان. فلا تكترث لذلك يا محمد، لأن عدوانه هو الذي سيسفر عن غلبتك المادية في النهاية. إذ لو لم يلجأ العدو إلى الاعتداء والقتال فأنى للإسلام أن يحرز الغلبة المادية، لأن شن الحرب العدوانية ممنوع في الإسلام، فليس السبيل إلى غلبته المادية إلا أن يلجأ العدو إلى الاعتداء على المسلمين، حتى يُسمح لهم برد العدوان، وبما أن العدو قد أسخط الله بعقيدته الفاسدة فلا بد أن ينتصروا عليه بنصر الله ﷻ.

وهذه خلاصة قول الله تعالى ﴿ألم تَرَ أنّا أرسلنا الشياطينَ﴾ إلى قوله تعالى ﴿سيجعَل لهم الرحمن وُدًّا﴾.

وأخيرًا يقول الله تعالى: كان الوحي ينـــزل على اليهود بالعبرانية، فلا يعترض أحد الآن على نـــزول القرآن بالعربية، إذ يجب نـــزول الوحي لكل قوم بلغتهم لكي يتم تبليغه بسهولة ويسر، ويفهمه الصديق والعدو، وتتم الحجة على الكافرين، فإن عذابنا إنما ينـــزل بعد إقامة الحجة، وإن عذابنا لهو العذاب الشديد.

وهذا هو ملخص قول الله تعالى ﴿فإنما يسّرناه بلسانك﴾ إلى قوله تعالى ﴿أو تسمَع لهم رِكْزًا﴾.